صفحات مطوية من المصرى

الشهاب المنصورى

للأستاذ السيد أحمد خليل

ذلك شاعر آخر من الشعراء المنصورين الذين نشأوا فى مصر ، وتأثروا بما يجرى على أرضها من أحداث ، تظهر فى أعمالهم الشعرية التى خلفوها خصائص هـذه البيئة ومزاياها . ذلك هو الشاعر المعروف بالشهاب المنصورى

ترجمته :

يعرف هـذا الشاعر بالشهاب المنصورى ، وبابن الهائم والمترجمون له يستعملون هاتين الشهرتين . فأما نسبه كاملاً ، فهو : أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الدائم بن رشيد الدين بن عبد الدائم بن خليفة المعروف بالشهاب المنصورى .

ولد سنة ٧٩٨ هـ ببلدة المنصورة ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن وجوده ، وتلقى بعض المبادىء فى الفقه والحديث والتفسير والأدب ، ثم رحل إلى القاهرة ، فعرض كتاب التنبيه[1] على الجمال الأقفهسى المالكى ، ثم حفظ اللمحة وقد رحل فى شبابه مع والده إلى دمشق ، ثم عاد إلى القاهرة وعاود البحث فى التنبيه على الشرف عيسى الأقفهسى الشافعى ، وعرض ألفية ابن مالك على الشمس الجندى وأخذ عنه أشياء من تصانيفه فى النحو كالزبدة والقطرة ، ولما فرغ من قراءته عليه قال :

تفاؤك شمس الدين قد فاح نشره
لأنك لم تبرح فتى طيب الأصـــل
أفاض علينا بحر علمك قطرة بها زال عن ألبابنا ظمأ الجهل

وأخذ النحو أيضاً عن البدر حسن القدسى شيخ الشيخونية ، وسمع الحديث عن الرشيدى وتنزل فى حنابلة الصوفية بالشيخونية وعانى الأدب وطارح الشعراء ، وصار بأخرة أوحد شعراء القاهرة حتى كان العز قاضى الحنابلة يقدمه على الكثيرين ، وقد حج وامتدح النبى بعدة قصائد ، وخمّس البردة ومدح غير واحد

(١) التنبيه هو الكتاب المعروف بتنبيه فى فروع الشافعية لأبى إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية وقد شرحه كثيرون (انظر كشف الظنون) ويظهر فى كثير من الحوادث أن تمايز المذاهب فى الدراسة لم يكن مستقراً فى ذلك العصر ، فالطالب يقرأ الفقه الحنبلى والشافعى والمالكى على غير أهل هذه المذاهب كما يتبين ذلك من دراسة الشهاب المنصورى وغيره .

ما هى تلك الكفأة التى كانت تنتظرها رومانيا ؟ إذن فاستمع : وعدت ألمانيا النازية بحل المشكلات المعلقة بين رومانيا وجاراتها بما يرضى الضمير الجرمانى بشرط دخول رومانيا الحرب فى صفها ضد حلفائها بالأمس فتضع بذلك مناطق الزيت والحبوب تحت تصرف الألمان !

تمخض الوعد عن اجتماع فى فينا بين هتلر وساسة رومانيا وهنجاريا ، وكانت النتيجة أن نُزعت ترانسلفانيا من التاج الرومانى وقُدّمت قرباناً إلى نسور هنجاريا ! تلك هى مأساة الثقة بوعد الهر الجرمانى

دخلت رومانيا الحرب ووضعت جميع مواردها ومرافقها تحت تصرف الألمان ، فما كان من هؤلاء إلا أن عاملوها معاملة السيد لتابعه ، وبدلاً من أن يكافئوها بالاحتفاظ بالولايات كما كان مشروطاً كافأوها بسلخ ترانسلفانيا وبوكوفينا سلخاً لا شفقة فيه ولا شفاعة

ولما أن دار الفلك دورته وأنشبت روسيا أظفارها فى قلب الهر الجرمانى منتزعة بسارابيا من قبضتها بحد السيف ثاب الرومانيون إلى رشدهم وشعروا — ولكن بعد فوات الوقت — أن لا سلامة الآن لهم إلا بالخضوع والإذعان لمطالب روسيا المشروعة

وقد أذيع اليوم أن بين هذه المطالب — ولا أقل من أن يكون الأمر كذلك — أن تنقلب رومانيا إلى صف الحلفاء وأن تكون حكومة ديموقراطية تحمل السيف فى وجه ألمانيا التى لم تجر عليها مخالفتها سوى الخراب والدمار على أنه من الواضح أن الحلفاء سوف يبرون بوعدهم على استرداد ما انتزع الألمان فى اجتماع فينا فيضمون بذلك الحق فى نصابه ويعيدون إلى قيصر ما لقيصر

على اسماعيل

من الأعيان ، وكان صديقاً للسخاوى ، صاحب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، وقد ترجم له ترجمة ضافية ، ويقول الشهاب المنصورى يهنئه بمولود له :

ليهنك شمس الدين فرعك مشبه
سجاياك والقطر الشهى من الطخا
وذلك من جود الإله وفضله
ففرعك من جود وأصلك من سخا

ويتفق صاحب شذرات الذهب مع السخاوى فى أنه توفى يوم الإثنين سادس جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ

أخلاقه

يقول السخاوى إنه كان ظريفاً كيسا متواضعاً متقللا قانعاً ، ويبدو فيما رأيناه من شعر الشهاب أنه كان ظريف اللسان خفيف الروح يتمثل فيه الخلق المصرى الهادىء الوديع مع اليقظة التامة لما يجرى حوله من أحداث لا بد أن يشارك فيها جاداً أو مازحاً

شعره

فأما شعره فيصفه صاحب شذرات الذهب بأنه جيده فى غاية الحسن وينقل من ديوان له تلك الأبيات :

شجاك بربع العامرية معهد
به أنكرت عيناك ما كنت تعهد
ترحل عنه أهله بأهلة بأحداجها غيد من العين خرد
كواكب أتراب حسان كأنها برود بأغصان النقى تتأود

كما يقول السخاوى إنه أضحى مشاراً إليه بالشعر فى الآفاق ، ويحدثنا عن ديوانه أيضاً ويصفه بالكبر ، وأنه انتخبه فى مجلد وسط قبل أن يموت . والمتتبع لحياة هذا الشاعر يرى أنه قد شارك فى جميع ألوان الحياة المصرية فى عصره ، وأن أداته فى ذلك كله كانت الشعر ، فهو يهنىء السلاطين بالملك بالشعر ويمدح ويذم ويداعب ويتحسر بالشعر أيضاً ، وسننقل فى ذلك بعض الحوادث مقرونة بشعره

لما عين مثقال الحبشى الساقى فى مشيخة الحرم الشريف ، وكان مثقال هذا عشير الناس كثير الانهماك على شرب الراح ، فقته السلطان قايتباى وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب قال فيه الشهاب المنصورى :

يمم ندا كف مثقال فراحته فيها لمن أمه جود وإفضال
واعجب له فرعاه الله من رجل فيه قناطير خير وهو مثقال

وقال فى شاهين غزالى الظاهرى الرومى ، وكان بارع الجمال افتتن به كثير من النساء والرجال ، وافر العقل غزير الأدب منهمكا فى ملاذ نفسه وشهواتها

قد صاغك الله من لطف ومن كرم
وزاد حسنك بالإحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيوردعا
من جو إخلاصنا إن كنت شاهينا

ويلاحظ أنه مولع بالتورية فى شعره ، فهو يستعمل الشاهين بمعنى الصقر ، ومثقال بمعنى المقدار وهما علمان . وذلك أسلوب من أساليب الشعر فى ذلك العصر

كما يصف طاهوناً تفشى خطره فى الناس فيقول :

يا نعم عيشة مصر وبئس ما قد دهاها
لما فشا الطعن فيها حاكى السهام رماها

وهو يحارب الأمراء فى جشعهم ليحملهم على أن يخرجوا الغلال التى احتكروها فيقول فى الأمير يشبك الدوادار لما فعل ذلك :

وظالم منه أتانا الغلا يا ويله فى الحشر من ربه
فادعوا وقولوا ربنا اطمس على أمواله واشدد على قلبه

وهو يتعصب للعلماء فينصر ابن الفارض على البقاعى ، كما يرثى العلماء الذين عاصرهم رثاء مفجعاً يدل على ما يكنه لهم فى نفسه من احترام وتقدير ، فقد كان فى مصر فى ذلك الوقت سبعة من الشعراء العلماء يحملون اسم الشهاب فماتوا جميعاً وبقى شاعرنا فرثاهم بقصيدة طويلة ذكر طرفاً منها ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور ومنها :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجهاً بعد رحلة من تجاذبوا بالمعانى مركز القطب

وفاته

كان شاعرنا يميل إلى الفكاهة العذبة ويحتال لها فى شعره بأنواع من البديع كالجناس ونحوه ، ويتبين ذلك فى الأبيات التالية التى داعب بها صديقه الشاعر عبد الرحمن بن حسن